دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	تخطيط المدن في المغرب العربي : دراسة في الأصالة والتأصيل
المصدر:	المورد
الناشر:	وزارة الثقافة والاعلام - دائرة الشؤون الثقافية
المؤلف الرئيسي:	الأشعب، خالص حسني
مؤلفين آخرين:	الطائي، اياد عاشور حمزة(م. مشارك)
المجلد/العدد:	مج 26, ع 3
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1998
الصفحات:	89 - 102
رقم MD:	251056
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	المغرب العربي ، تخطيط المدن ، الحضارة العربية ، النمو العمراني، العمارة الإسلامية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/251056

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

تخطيط المدن في المغرب العربي

دراسة في الاصالة والتأصيل

أ . د . خالص حسني الاشعب

د . اياد عاشور الطائي

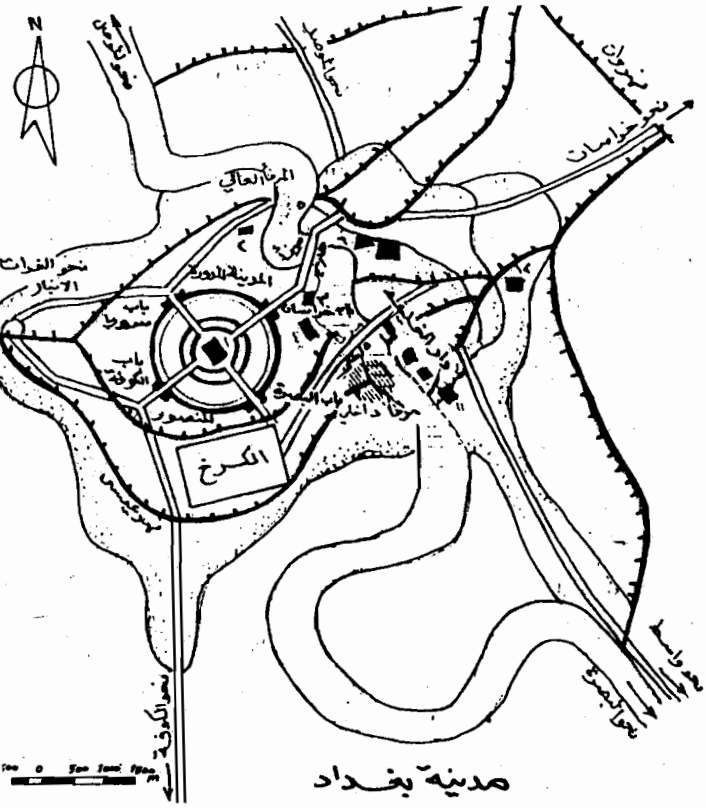

مدينة بغداد

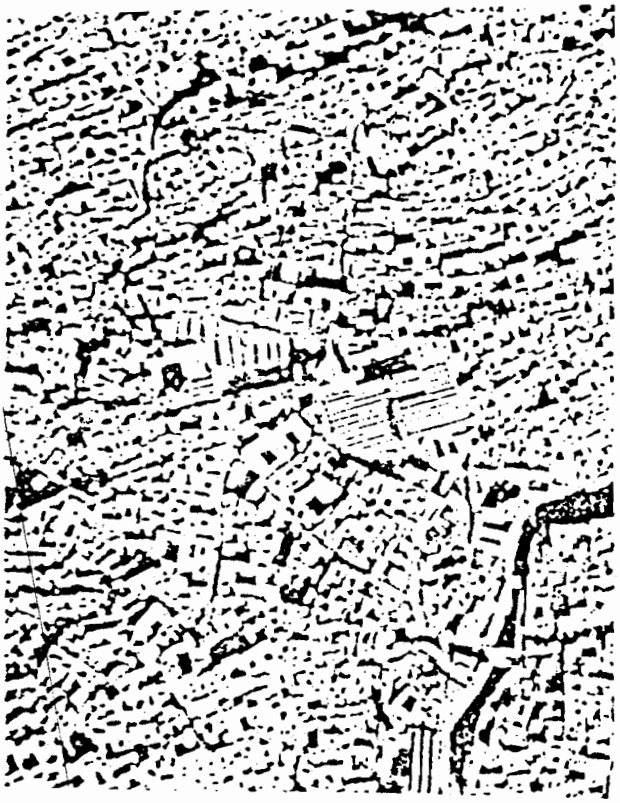

المقدمة

تمثل منطقة المغرب العربي عمقاً مهماً في امتداد الحضارة العربية وخاصة منذ القرن الاول الهجري / السابع الميلادي بعد تحرير العرب المسلمين لها مما كان وراء التطور الشامل ضمن أطارها .

ان لدراسة تخطيط المدن في هذا الجزء المهم من الوطن العربي الذي يشغل نحو ٤٠٪ من مساحته ويعيش فيه قرابة ثلث سكانه أهمية بالغة حيث لم يدرسه الباحثون مقارنة مع ما تمت دراسته من المدن في المشرق العربي الاسلامي . ركزت الدراسات المتوفرة على الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية على الرغم من أن عدداً من تلك المدن حافظت على نسيجها الحضري وعناصرها التخطيطية الذاتية مثل تونس وفاس والمهدية وتلمسانة والقيروان ومراكش حيث ما زال كثير من آثارها شاخصاً وان بعضها نشات معاصرة او متقاربة ومتاثرة بمدن مهمة في الشرق العربي كالكوفة والبصرة . يمتاز المغرب العربي بتفرد وتميز شخصيته ضمن أطاره العربي التي جاءت نتاجاً لتفاعل عميق بين بيئة ملائمة

وانسان نشيط ، عزز ذلك كله موقع مهم واتصال سهل بينه وبين أوربا ، والبحر المتوسط شمالاً ، والمشرق العربي بثقله الحضاري شرقاً . وقد لاحظ الجغرافيون هذه الوحدة الفريدة منذ زمن بعيد فاطلقوا عليه اسماً واحداً كان يختلف من حين لآخر حتى جاء العرب فسموه باسم (جزيرة العرب) لوقوعه بين بحرين أحدهما من الماء والآخر من الرمال .

انعكس انتشار الاسلام في المغرب العربي خلال القرن الاول الهجري على المؤسسات والمبادىء التخطيطية ذات الاطر الاجتماعية والقانونية والاقتصادية والنشاط الحضري والعمراني الذي تسارع في تطوره أثناء تلك المدة . ورافق النشاط العمراني مشاكل تطلبت المعالجة ضمن أطار تشريعي لضبطها والبت فيها تمثل بالفقه والشريعة الاسلامية وأن هذه الخطوط التشريعية الاسلامية الموحدة الموجهة والاطار الحضاري الاجتماعي المتماثل تقريباً الذي أوجده الاسلام مشرقه او مغربه قد ساعدت في اعتماد الاسس ذاتها في تاسيس وتخطيط المدن الذي نتج عنه نمط حضري بخصائص عربية أسلامية مميزة انتشر على امتداد الارض العربية وتلك المتاثرة بحضارة العرب .

اما الخصوصية التي تميزت بها مدن المغرب العربي ضمن النمط الحضري العربي الموحد فكانت بسبب التاثيرات المحددة للمناخ المحلي والظروف الاقتصادية ومواد البناء المتاحة ، والتاثيرات والمداخل الاسلوبية الموضوعة مما حقق مراحل نضوج استمر الى وقتنا الحاضر .

هدف البحث

يهدف البحث الى استشراق الخصائص المميزة لمدن المغرب العربي على مستوى الهيكل الحضري حيث الاحتواء الهرمي والاتجاهية والمقياس الانساني أولاً والمنطقة المركزية للمدينة ثانياً والنسيج الحضري ثالثاً مع التاكيد على توزيع استعمالات الأرض ونظام الحركة والتنظيم الاسكاني والجوانب الاجتماعية ـ الاقتصادية والمشهد المديني وصولاً الى استنتاجات مما يساعد المعني على تحديد ما يدعو الى التاصيل في الممارسات التخطيطية المعاصرة .

مفهوم المدينة العربية الاسلامية :

تجسم المدينة العربية الاسلامية التعاليم والتقاليد والقيم الاسلامية في هيكل اجتماعي محدد وشكل حضري مكاني . فالهيكل الحضري (URBAN STRUCTURE) لاية مدينة هو انعكاس وترجمة للتطلعات الانسانية التي تتاثر بفعل عوامل اخرى كالاقتصاد والخيارات الفردية والاجراءات التخطيطية وظروف الموضع والموقع . لذلك تاثرت المدينة العربية الاسلامية في شرق الوطن العربي ومغربه بالشريعة والمبادىء والقيم الاخلاقية والروحية التي انبعثت مباشرة من الايمان بالاسلام وفلسفته أنعكس ذلك على المجتمع الاسلامي وحياته الحضرية ، وبالتالي على شكل المدينة ومورفولوجيتها . كما ان غالبية الموروثات المعمارية هي ابنية عامة لوظائف القائم منها من هذه المدة ذات مواقع مركزية .[1] وشوارع المدينة في هذه الحالة تكون اقرب الى الشعاعية مركزها الجامع او قصر الخليفة ومتجهة الى اسوار المدينة للاتصال بالخارج . انتشرت على امتداد هذه الشوارع الفعاليات التجارية والسكنية ويتميز نسيجها العمراني بانغلاق الكتلة البنائية المتماسكة تعبيراً عن قوة الترابط الاجتماعي وتعبر فضاءاتها عن وحدة التوجه ووحدة الفكر .[2] وأهمية المكان وقدسيته وضرورة حمايته وعزله عن البيئة المناخية القاسية أعتمد بنية كثيفة متولدة من التكرار اللامتناهي لخلية الاحتواء من الفضاءات الداخلية التي تتجه نحو الداخل وصولاً الى حالة التكامل والتماسك لعناصره . وأن اغلب ما يجلب انتباه الباحث للمدينة العربية الاسلامية هو بساطتها حيثما وجدت سواء في المشرق او المغرب العربي وكذلك ترابطها وكفاءتها الوظيفية (بالنسبة للوظائف التي انشئت من اجلها في الأساس) وتجانسها مع المحيط وجوها الاجتماعي . وتشتهر المدينة العربية الاسلامية باسواقها المصممة للمشاة والمظللة بواسطة تسقيفها مع فتحات في تلك السقوف للأنارة والتهوية .

ويعد السور الذي يحيط بالمدينة لاغراض الحماية من الملامح العامة المشتركة أيضاً لمعظم المدن العربية الاسلامية على الرغم من ان معظم تلك الاسوار قد تم تهديمها ومن مميزاتها تكيفها للظروف الطبيعية والمناخية أذ أثرت هذه العوامل في تكوين

المدينة حتى امتلكت خصائص جمالية حضرية متميزة لا تمتلكها المدينة العربية الحديثة نتيجة لابتعادها عن معالجة تلك العوامل .

تخطيط المدن .

تميز تخطيط المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي بالاصالة ، أذ كانت تنمو نواتها عادة حول المسجد الذي جاء بمثابة المركز الروحي للمدينة . وكان القصر يقام عادة بالقرب من المسجد وتنتشر من حول المسجد الأسواق ، وتمتد على الأطراف والبيوت والمساكن . وتخطيط المدينة بهذا المفهوم يختلف عن خطتها فخطة المدينة تعني الشكل الذي تبدو عليه من خلال انتظام شوارعها وميادينها وتجمعاتها السكنية وفق نظام معين يعطيها شكلًا حضارياً يختلف عن غيرها من المدن التي تنمو وفق خطة أخرى .[٣]

وكان للأسلام تأثير واضح على اسلوب تخطيط المدن وتركيبها في المغرب العربي فقد اصبح الجامع (المركز الديني) هو العنصر الاساس للمدينة ، فعلاوة على وظيفته الدينية يعد مدرسة ومكاناً للمجتمع السكاني ومركزاً قضائياً ، ويشغل الجزء المركزي في المدينة نواة التجمع لبعض الفعاليات التجارية حوله ان لمركزية الجامع وتعدد الوظائف التي تجري فيه أثراً كبيراً على خطوط الحركة من والى مركز المدينة وظهر هذا واضحاً في مدينة تونس وفاس .

ان تخطيط المدن المعاصر في المغرب العربي يسير بين ماض يحاول البقاء وأفكار حديثة تحاول ان تفرض نفسها على حياة المدينة ، وهذا ما نلاحظه في المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي من تخطيط ملائم مع بيئتها العربية معتمد على افضل ما لديها من تراث فكري وعلمي عربي أسلامي .

التاثير المعماري ـ التخطيطي لمدن المشرق العربي على مدن المغرب العربي .

استفادت مدن المغرب العربي من الطرز المعمارية والأساليب الفنية والأسس التخطيطية لمدن المشرق العربي يمثل ذلك في المدن التي انشئت بعد الفتح الاسلامي او التي وسعت او طورت من المدن القديمة ، فما يخص المدن قبل الاسلام ، فان المظهر العام للمدن في المغرب العربي لا يختلف عن مظهر اخواتها مدن المشرق وفي ذلك يقول لويس ممفورد « لابد من ان المظهر العام للمدن القديمة في شمال افريقيا شبيه جداً بمظهر مدينة ذات اسوار في بلاد ما بين النهرين ، فقد كانت توجد ذات الشبكة من الطرقات الضيقة ، او بالاحرى الأزقة التي ربما لم يزد عرضها على ثماني اقدام (مترين و٤٠سم) ، والمنازل نفسها ذات الطابق الواحد او الطابقين او الثلاثة ، وذات الأسطح التي يمكن استخدامها ، وذات الأفنية الداخلية ، وأخيراً المعبد المدرج السامق الذي كان

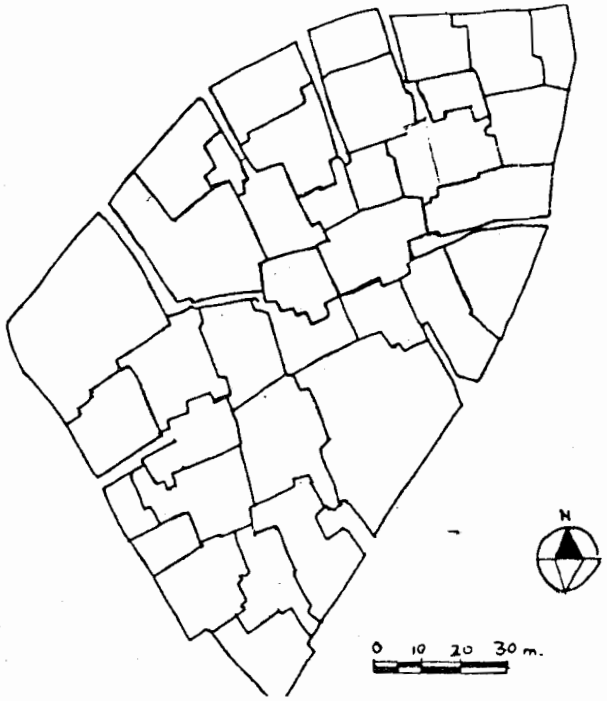

يشرف عليها جميعاً ، مثل ما تشرف مئذنة المسجد على المدينة الاسلامية ، وفيما وراء حرم المعبد كنسيج محوطٍ بالأسوار ، كما تمتد سلسلة من مناطق الجوار التي كانت تتفاوت في تلاصقها ، وتوجد فيها هياكل ومعابد أصغر حجماً ليستخدمها أصحاب البيوت في العبادة .[٤] اما بالنسبة للمدن العربية الاسلامية ، فقد كان العرب المسلمون يتبعون قواعد معينة في تخطيط وبناء مدنهم فكانوا أذا اختطوا مدنهم بدأوا بالمسجد الجامع أولًا وجعلوه في مركز المدينة وجعلوا حوله فراغاً منه تشرع الطرق واليه تفضي الشوارع وكانوا يجعلون دار الأمارة ملاصقاً ، للمسجد وتكون عادة في الضلع القبلية منه ، ويظهر في مدن الكوفة والبصرة والفسطاط ، وأتبعت الأسس ذاتها في تخطيط مدينة القيروان .[٥] وقد كان لتخطيط مدينة بغداد وتجربتها ، باعتبار تكويناتها المعمارية داخل السور مدينة ملكية نمت خارج اسوارها ارباض العامة ، أثر واضح على تخطيط المدن في المغرب العربي بشكل عام وتخطيط المدن الملكية بشكل خاص التي تطورت بدورها الى مدن للعامة نتيجة اختلاف ظروف قيامها بانحلال ملك وقيام آخر ، وتتابع حياة الدول الحاكمة التي ترغب في اتخاذ هذه المدينة او تلك حاضرة لها ، او تغرب عنها فتنشىء مدينة اخرى مجاورة لها او بعيدة عنها ، ومن تلك المدن التي تعكس ذلك المهدية وفاس ومراكش والرباط ، شكل (١) ومن المدن ذات التأثير الواضح في المغرب العربي هي مدينة (صبرة) ويظهر تأثير تخطيط مدينة بغداد الدائري عليها ، وهي من المدن المنبثقة من الدمينة الأم القيروان فكانت قريبة منها ومتصلة بها .[٦] وكانت تسمى ايضاً بالمنصورية ، وهي التي بناها اسماعيل بن عبد الله سنة

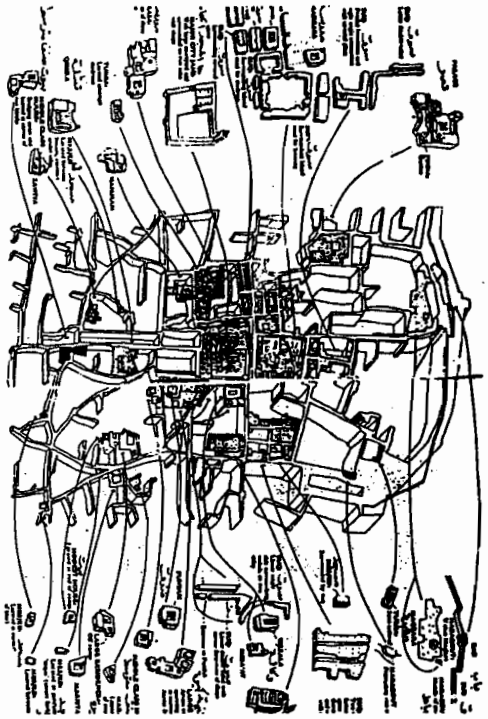

(٣٧٧هـ) وسكنها وبنى قصره فيها .[٧] وكانت فيما روى المقدسي « مدورة مثل الكاس لا يرى مثلها » ، وقال « دار السلطان وسطها على عمل مدينة السلام والماء يجري وسطها شديدة العمارة حسنة الاسواق بها جامع السلطان وعرض سورها أثنا عشر ذرعاً منفصلة عن العمارة » .[٨] اما بالنسبة للعمارة التي تعد من اهم معالم الحضارة الاسلامية بصفتها مظهرها المادي الملموس ، فبالنسبة لعمارة المساجد فان الفن المعماري الاسلامي في المشرق او المغرب العربي اعتمد على الهيكل الرئيس لمسجد الرسول (ﷺ) في المدينة المنورة ، وانتفع بعد ذلك بما يسر له من عناصر فنية في البلاد التي دخلت في دولة الاسلام والبلاد المتصلة بها ، وتطور من انشاء المساجد في كل اقليم في اتجاه محلي ذي طابع اقليمي ، ومن هنا فان الطرز المعمارية التي ابتكرتها شعوب الأسلام في بناء المساجد طرز اقليمية ، يتطور داخل حدودها ، وقد اقتبست هذه الطرز بعضها من بعض ، وهذا كله أوجد بين الطرز المختلفة قدراً معيناً من التشابه وجعل للمساجد أياً كان نوعها ـ هيئة خاصة متميزة تعرف بها كل مكان يحددها ثوابت دينية يقوم عليها الجامع . ويعتبر الطراز العربي المغربي اقدمها ، لانه نشأ عند بناء جامع عقبة في القيروان في القرن الأول الهجري .[٩]

وتتشابه المساجد في المغرب بشخصيته وتطوره داخل نطاق الخصائص المميزة لكل جزء من اجزاء المبنى ، فالمغرب العربي لم يتعرض منذ دخول الاسلام لاي تيار ثقافي خارجي ، الى مطلع العصر الحديث ، فبينما تعرضت بلاد المشرق العربي للتيارات البيزنطية والتركية والفارسية والمغولية والصليبية ، فكان لذلك اثره في تغير اشكال طرزه المعمارية ، ظل المغرب العربي ، بعيداً عن هذه التيارات ، مما أضفى على عمارة المغرب العربي وعناصره أصالة وريدة .[١٠] فبالنسبة للمآذن يقول فريد الشافعي « وأغلب ظننا ان جميع مآذن العالم الاسلامي كله في العصر المبكر ، كانت تتبع تكويناً معمارياً مشتركاً ومشابهاً لمئذنة القيروان او قريباً منها وينحصر الاختلاف في النسب المعمارية للقواعد وطبقاتها العليا وابدانها » .[١١] اما بالنسبة لبيت الصلاة فقد جرت العادة بان يمتد بيت الصلاة في المغرب العربي حتى يشغل نصف مساحة المسجد او اكثر ، فيبدو الصحن وكانه فناء فسيح في مؤخرة المسجد وأن دار عليه السور ، والسبب في ذلك الى ان الأمطار في هذا الجانب من البلاد العربية الاسلامية أغزر وأطول مدى مما عليه في المشرق فاتجهت العناية الى تغطية أكبر مساحة ممكنة من المسجد وهو ميزة من مميزاتها الواضحة .[١٢]

اما بالنسبة للمساكن ، فقد كان لطراز مسجد النبي ، أثره الذي لا ينكر على تصميم الدار في مدن الاسلام ، وبشكل خاص في المغرب العربي ، فقد اصبحت الدار بناء مربع الشكل يتوسطه فناء ، اشبه ما يكون بصحن الجامع ، وعلى هذا الفناء تفتح ابواب الحجرات فكان صحن الدار هو المتنفس لاهلها فهو يمدهم بالشمس والضوء والهواء ، وهم في داخل حرمهم بعيداً عن أعين الغرباء وربما غرس الصحن في الدار الكبيرة باشجار الفاكهة او الرياحين حتى يصبح جنة القاطنين فيها ، تماماً كما كان صحن المسجد وخاصة في المغرب العربي .[١٣]

ويمكن ملاحظة ذلك في اغلب مساكن المغرب العربي حتى وقتنا الحاضر . وهذا التشابه بين الدار السكنية والمسجد الذي هو دار العبادة ، هو الذي دعى « كونل » الى تسجيل عدم وجود فرق ملموس بين العمارة الدينية الاسلامية والعمارة المدنية .[١٤]

الخصائص المميزة للمدن العربية الاسلامية في المغرب العربي .

ـ التكوين الفضائي على وفق المستويات الآتية :ـ

أولاً : الهيكل الحضري Urban Structure

ثانياً : المنطقة المركزية Core

ثالثاً : النسيج الحضري Urban Fabric

أولاً : الهيكل الحضري

كان تشكيل المدينة العربية الاسلامية في مغرب الوطن العربي ومشرقه بسيطاً حيث يهيمن الجامع على أفق المدينة العربية الاسلامية حيث تحيط به المحلات السكنية والتجارية والحرفية المزدحمة وقد صممت الطرق الداخلية بصورة رئيسة للمشاة ومرور الدواب ، استند العديد من المدن العربية الاسلامية التي تاسست في المغرب العربي في بداية الفتوحات الاسلامية وأبان العصر

الاسلامي في ممارستها على قواعد تخطيطية ، ولذلك لا يمكن القول إن هذه المدن قد نمت دون خطة ودون قواعد وبمحض الصدفة تقريباً ، وبان شبكة شوارعها وأزقتها تكون متاهة غير منتظمة ، ولكن الرسم الهندسي المنظم في الأصل في زمن التأسيس غطت على معالمه بمرور القرون عمليات النمو . وهكذا اتخذت محاور المرور الكبيرة بعد ذلك مساراً غير منتظم وكثير المنحنيات وبعرض متباين والشكل (٢) يبين مخطط لمدينة تازا في المغرب والمحور المركزي للشوارع يربط اهم قطبين للمدينة (مسجد الجنة ومسجد الأندلس) . ويقع في منتصف هذين المسجدين المركز الاقتصادي للمدينة مع السوق . ومن ملاحظة الهيكل الحضري للمدن العربية الاسلامية في المغرب العربي يظهر ان المدن التي حافظت على فكرة اسوار المدينة (City Wals) والتي حددت شكلها قد حافظت على فكرة المركزية . كما تقوم اسوار المدينة بتحديد وحماية جسم المدينة وبمرور الزمن ينمو النظام الخطي للسوق وتنمو المحلات السكنية من المحور الرئيسي وينسلخ ليسقط الغلاف القديم ويتكون غلاف آخر جديد ، اي ان هوية وحدود الانسان ومدينته وكيانه وعالمه قد تكون ثانية .

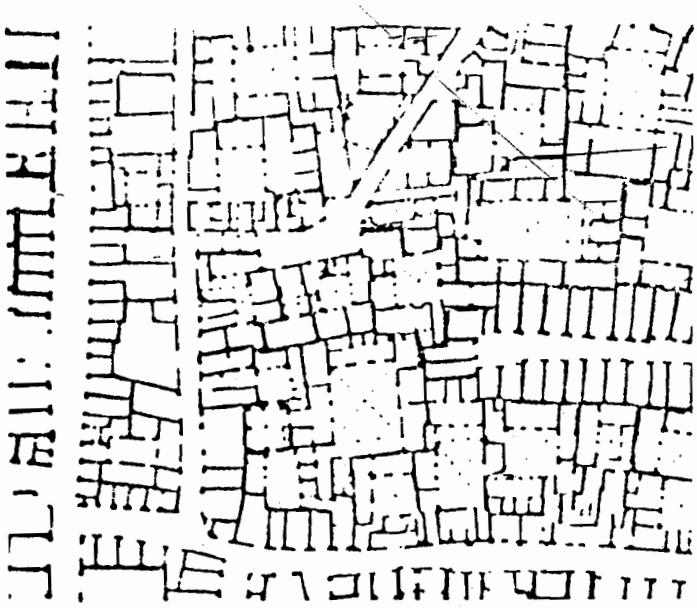

١ ـ الاحتواء :

يعد الاحتواء السمة الاساسية للتكوين الفضائي لمراكز المدن العربية الاسلامية في المغرب العربي والفناء الداخلي للمسكن يمثل الخلية المجسدة لمفهوم الاحتواء والتوجه نحو الداخل . وينطبق هذا المبدأ ايضاً على المدينة فهي تمثل بحد ذاتها فضاءً استوائياً منغلقاً على نفسه وذلك بسورها المحيط ، ويمثل المسجد الجامع المركز الحيوي لهذا والمنطلق الاساس له ، تحيطه بيئة كثيفة من التتابعات الاحتوائية النسيجية المتولدة من التكرار العضوي اللانهائي لخلية الاحتواء وتخترق هذا النسيج العضوي شبكة من الأزقة ومسالك الحركة كما في مدينة فاس شكل (٣ب) بسبب حاجة الانسان وتطلعه الى ان يحتوي نفسه في فضاء الجامع او محور السوق . وبذلك فالمدينة تمثل فضاءً أحتوائياً منغلقاً على نفسه يمثل فيه المسجد الرئيس المركز الحيوي لهذا الاحتواء والمنطلق الاساس له . تحيطه بنية كثيفة من نسيج متجانس ذو تتابعات أحتوائية متسلسلة .

٢ ـ الهرمية (التدرج)

يعرض التكوين العمراني للمدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي تدرجاً في الفضاءات الحضرية يمتد من المجال العام الى اصغر وحدة للمدينة وهي الفناء الداخلي السكني ومجاله الكامل في الخصوصية . ويمثل الجامع في هذا التنظيم البؤرة المركزية لكل هذه المجالات ولما كانت الفضاءات الخارجية المفتوحة في المدينة العربية الاسلامية تقتصر على الشوارع والأزقة فان هرمية هذه الفضاءات آنما تمثل التدرج في مستويات الطرق الحضرية من حيث كثافة الاستخدام ومستوى الخصوصية الذي تقدمه للمباني المطلة عليها . هذا التنظيم نابع من تاثير واضح لتعاليم الدين والبيئة الاجتماعية التي كونها والتي تدعو الى فصل وخصوصية عالية للحياة العائلية وبالتالي كانت الفضاءات شبه الخاصة (الشوارع المسدودة النهاية) محاولة لخلق منطقة محمية خارج الوحدة السكنية نفسها تكون فيها الحرية العامة والمسؤولية محكومة . شكل (٤) .

٣ ـ الاتجاهية .

تعد الاتجاهية احدى العوامل الحسية والبصرية المهمة التي أثرت على المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي . فالمظهر العام للمدينة يظهر ان كل عنصر من عناصرها يعطي اتجاهاً ذا معنىً معين . فالابنية عموماً تتجه نحو الداخل ـ الفناء الداخلي ، كما تاثرت الاتجاهية بدورها بالدين الاسلامي ، فالاتجاه الروحي للمسلمين نحو الكعبة ويحدده توجيه الجامع وكذلك توجيه وتحديد استقامة واتجاه الشوارع الرئيسة التي تتقاطع في المركز عند المسجد الجامع . وتتجلى هذه الخاصية ايضاً في المناطق التي تكون فيها الجوامع البؤرة البصرية (Visual Focus) للمنطقة وتلعب دور المحدد او المعرف للفضاءات والساحات العامة .[١٠] وكذلك في مدن المراقد المقدسة فالضريح يمثل الموجه الفضائي الرئيس للمدينة القديمة حيث تظهر خطوط ومسالك الحركة وكانها تتجه كلها نحو نقطة واحدة تمثل مركز التكوين للمدينة ، وهو الضريح .

٤ ـ المقياس الانساني .

اعتمدت المدينة الاسلامية المقياس الانساني في تشكيلها وتوسيعها ، وهو مقياس ينبع من احتياجات الانسان المادية والحسية وقد قوى هذا المقياس تعاطف الانسان مع محيطه وعمق اتصاله بالماضي .

ويظهر المقياس الانساني في جميع مستويات التكوين الفضائي العامة والتفصيلية ففي المستوى العام ، يتحدد حجم المدينة وابعادها بدرجة كبيرة بامكانيات حركة المشاة وكذلك حجم المحلة السكنية بما يسمح بأواصر اجتماعية قوية وهذا ما نشاهده في المقياس الانساني للشكل الحضري في مدينة تونس القديمة (شكل ٥) . اما في المستوى التفصيلي فيظهر مثلاً في ابعاد الفضاءات العامة وفضاء الجامع او المراقد وأبعاد الازقة وأرتفاع المساكن والابنية المكونة للنسيج الحضري وفي مراكز المحلات السكنية التي يتحسس الانسان بتجانسها مع البيئة السكنية ويمكن ملاحظة ذلك في المقياس الانساني للتكوين الفضائي لقلب مدينة تونس القديمة . وبالنسبة لغالبية المدن العربية الاسلامية في المغرب العربي فان هذا المقياس الانساني هو الذي لم يسمح بظهور العناصر التي تقزم الانسان باستثناء البوابات والمنائر او بابراز القوة والضخامة سواء المظهر العام للمدينة او في واجهات الابنية . شكل(٣)أ .

ثانياً ـ المنطقة المركزية :ـ

نشأت ونمت المدن وازدهرت واحياناً اضمحلت وتلاشت بمرور الوقت ورافق ذلك فكرة مركز المدينة الذي يضم مجمعاً للابنية والفضاءات العامة (المسجد الجامع والسوق الرئيس والفضاءات المفتوحة والمؤسسات الدينية والابنية الادارية الاخرى) مما جعله يمثل قلب المدينة والبؤرة المركزية لفعالياتها الحضرية وهو العنصر الاساس المنظم للهيكل الحضري للمدينة القديمة .[١٦] فالمسجد الجامع والفضاءات المحيطة يمثلان مركز التكوين الحضري والعنصر المهيمن على خط سماء المدينة وهيكلها الحضري ويتركز حوله الهيكل العمراني للمدينة حيث لا ينبغي ان تتجاوز أية بناية ارتفاعه .[١٧] ويستند ذلك التكوين الى مفهوم الترابط بين الجانب الديني والدنيوي في حياة الفرد اليومية ، وبالتالي الترابط والتفاعل المتين بين الفضاءات الدينية والتجارية بحيث تعبر عن المدى الكامل للفعاليات الحيوية للانسان .[١٨] ان ذلك التفاعل يتحول الى تعبير مادي محوره السوق الرئيس الذي يلعب دور الرابط والمكمل بين مجمع المسجد الجامع والمؤسسات الرسمية وشبكة الطرق الرئيسة (المكونات المنتظمة) من جهة النسيج الحضري للمناطق السكنية من جهة اخرى (المكونات غير المنتظمة) مما يضفي الشعور بالتجانس والوحدة في تنظيم مكونات المركز وأبنيته بالرغم من تعدد الوظائف والفعاليات فيه وتباين طبيعتها كما في مدينة تونس ، (شكل ٦) وتنسحب هيمنة المركز على التكوين الفضائي الحضري للمدينة على حجوم الفضاءات . فمنذ القرن العاشر الميلادي كان فضاء الصحن او المرقد اكبر من الفضاءات العامة المفتوحة في المدينة القديمة ، وبذلك فهو يترك أحساساً عميقاً ومؤثراً بالفضاء وشعوراً بالاستقرار بفعل التناقض مع الاحساس بالمقياس المألوف عند السير في الأزقة الضيقة ضمن النسيج الحضري المحيط به .[١٩] ويتضح ذلك في ارتباط الفضاء الداخلي لجامع القرويين في مدينة تونس القديمة مع الفضاءات العامة الاخرى المحيطة به ، (شكل ٧) .

ويتركز في قلب مدينة تونس نسيج كثيف للفعاليات الدينية والتجارية والادارية مكوناً البؤرة المركزية لفعالياتها الحضرية ، ويمثل المسجد الجامع (الجامع الكبير) موقعاً مركزياً في قلب المدينة عند نقطة تقاطع الشوارع الرئيسة التي تربط بينه وبين البوابات الرئيسة في سور المدينة او تربطه مع الطرق الخارجية المؤدية الى الضواحي المحيطة بالمدينة .

كما ان لهذا الموقع تاثيرات على نمط استعمالات الارض ولأنماط الكثافة (Density Patterus) في المنطقة المحيطة به ، وهو مشرف على حي الأسواق وهي عبارة عن شبكة ملتوية الخطوط من أنهج (مسالك) ذات سقوف مبنية معقودة او مكونة من الخشب وقد أنتصب على جانبي كل منها دكاكين للتجار او الحرفيين .[٢٠]

ثالثاً ـ النسيج الحضري :

يعد النسيج الحضري العضوي (المتراص) Compact احد اكثر الملامح بروزاً في الهيكل الحضري للمدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي(الشكل ٩) . ويقصد بالنسيج الحضري الفضاءات المغطاة والمكشوفة التي تمثل جزءاً معيناً من مساحة المدينة بطريقة لا يمكن او لا يحبذ نقله من اماكنه ويشمل بذلك الهياكل المعمارية التي تتضمن كل المباني المقامة في المدينة مثل المباني الحكومية ، والسكنية ، التي تشمل فضاءات الأزقة والشوارع والساحات العامة بغض النظر عن مرتبتها وأهميتها .[٢١] وتكون مجاميع الأبنية في النسيج الحضري واجهة مستمرة مغلقة للشارع ، وترتبط تلك المجاميع مع بعضها بأزقة متعرجة وملتوية ، وتعد أحد المكونات الرئيسة في الهيكل الفضائي للمدينة ، وتمثل هذه الأزقة الاستجابة العقلانية لنمط الحياة السكنية كما انها تمثل احد اساليب التجاوب مع متطلبات المناخ وتوفير الفضاء ، وبواسطة مقياسها الانساني ، تمثل عنصراً من عناصر المعيشة ووحدة الجيرة السكنية .[٢٢]

١ ـ مفهوم توزيع استعمالات الأرض :

تمثل استعمالات الارض في اي مدينة نتاجاً للتطور الحضاري الذي مرت به خلال مراحل تطورها ، ويختلف مفهوم توزيع استعمالات الارض في المدينة العربية الأسلامية عن مفهومها في المدن الغربية الذي يتبنى فكرة الفصل بين الجانبين الديني والروحي في الحياة الحضرية ، وسيطرة قوى السوق كعنصر فعال ومؤثر في تحديد الهيكل الحضري وتوزيع استعمالات الأرض . اما الفكرة التي يستند اليها مفهوم توزيع استعمالات الأرض في المدينة العربية الاسلامية فهي التكامل ما بين المكونات الدنيوية الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية ضمن أطار المعتقدات الدينية وهو ما يعبر عنه بنمط استعمال الأرض المختلط حيث يتكون قلب المدينة من مجمع الأبنية الدينية والأدارية كالمسجد الجامع والفضاءات المرتبطة به والسوق الرئيسي .[١] وكانت الاستعمالات التجارية لمدينة تونس من اهم الاستعمالات في المدينة واستمرت هذه الوظيفة تلعب دورها بالمراحل اللاحقة كاي مدينة عربية اسلامية أخرى . فالوظيفة التجارية نمت واصبحت نواة المدينة الأولى داخل السور متكونة من مجموعة من المحلات التجارية (الدكاكين) البسيطة والمرتبة بشكل صفوف في الاماكن المسقفة او نصف المسقفة لكي تتلائم مع الظروف المناخية السائدة التي تكون قريبة من المسجد الجامع (جامع الزيتونة) والتي تتدرج في اهميتها وتخصصها مع الابتعاد عن الجامع .

وعلى الرغم من التداخل في استعمالات الأرض في المدن العربية الاسلامية الا ان ذلك لا يلقي وجود بعض التقسيمات الثانوية والفصل بين المجال العام والخاص الذي يعكس التوجه الاسلامي في الخصوصية للقطاعات السكنية .[٢] فالهيكل الحضري لمدينة تونس يتكون من سلسلة مترابطة ومتدرجة من الفضاءات الحضرية التي تمتد بشكل متدرج من المجال العام (النطاق العام) نزولًا حتى اصغر وحدة في المدينة وهي الفناءات الداخلية للوحدات السكنية .

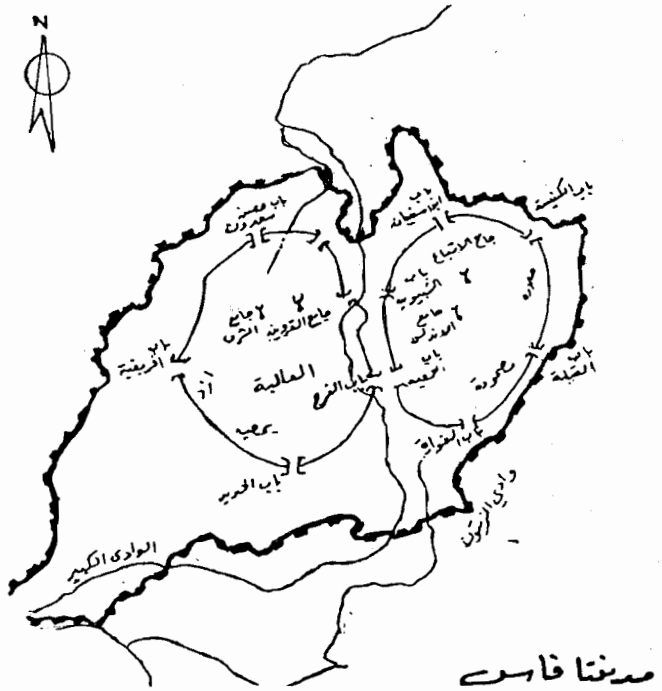

٢ ـ مفهوم نظام الحركة .

تمثل انظمة الحركة سمة من السمات الاساسية للمدينة العربية الاسلامية التقليدية ذات الهيكل الخلوي . كما ان المدينة العربية الاسلامية التقليدية على النقيض من المدن الغربية المبنية تحت القانون الروماني ، كونت وطورت طرقها العامة بعد تخصيص أماكن الخلايا السكنية وخدمت الممرات بين التجمعات أساساً كحدود وحافات للخلايات السكنية المتجانسة .[٢٥] لذلك تبدو الاجزاء المختلفة من شبكة المشاة محاطة ومضمونة ضمن الوحدات المعمارية المتجاوبة معها في التكوين . واحتلت هذه المسارات الأرض المتخلفة ، المتبقية من النمو المشترك للخلايا المحيطة . وهناك عددٌ محدودٌ من المسارات كان مخططاً له فعلياً او مجهزاً لغرض واضح مسبقاً ، فعلى العكس من تلك التي شكلت حدود الأملاك السكنية فان هذه المسارات كانت مستمرة ضمن المدينة تمثل محاور رئيسة ذات مسار طويل يربط المدينة مع بواباتها ومنها الى المدن الاخرى . وغالباً ما يظهر واحد او اكثر من هذه المحاور كمركز شريطي للصناعة والتجارة والبيع .(شكل ١٠) وتقود الشوارع الرئيسة للمدينة الى شوارع محلية اصغر ، تقود بدورها الى شوارع مسدودة النهاية ضيقة ، تقود هذه الشوارع الى الأبواب الخاصة للمساكن ، وهي تنقل الفرد بدورها عبر ممر او مدخل منكسر الى فناءات داخلية خاصة وغرف وبروزات معلقة امامية من الطوابق العليا . حتى الطرق الرئيسة كان بالأمكان أغلاقها ليلًا عند نهاياتها ، وكذلك بالنسبة للشوارع التجارية وذلك لتوفير درجة عالية من الأمان والسيطرة للمجموعات المحلية حتى يجعل صورة المدينة تبدو ككتلة صلدة مبنية تظهر فيها الفناءات والمسارات كمناطق منحوتة في هذه

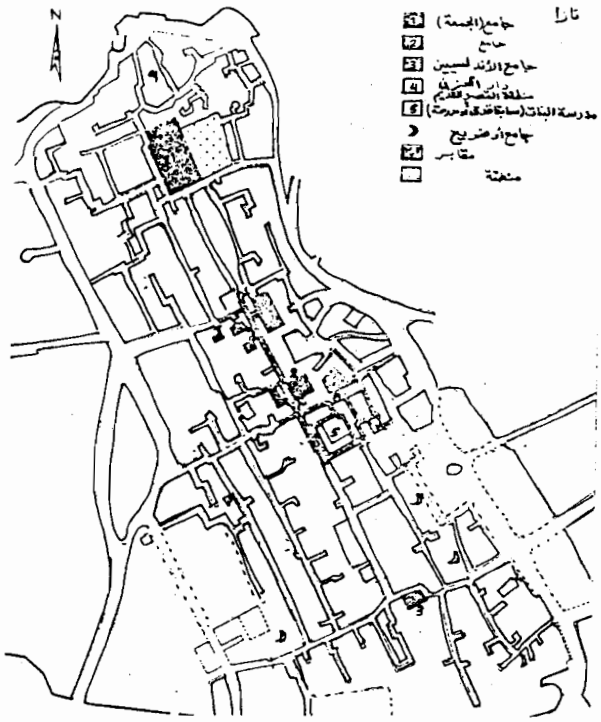

الكتلة .(شكل ١١) وتقدم هذه الصيغة حلولا ناجحة للظروف البيئية ولحالة التناقض بين ضجيج الشوارع المزدحمة ومتطلبات الهدوء الكامل للفناءات الداخلية للمساكن ، حيث صارت الفناءات مركزاً تدور حوله الفعاليات الخاصة . وتبعاً لذلك ولوجود علاقات الارتباط القوية التي وفرها هذا النظام لم تكن أنظمة الحركة للمدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي وسيلة أنتقال فقط وانما مثلت هذه الشبكة نظاماً للأتصالات بكل معنى الكلمة يلعب السكان الدور الأساسي في تشكيله والسيطرة عليه ، وبدلًا من ان تعمل شبكة الحركة على تجزئة الكتل العمرانية الكبيرة التي يتكون منها النسيج الحضري ، كانت تربط كل عناصر النسيج . وتتكون شبكة الحركة في مدينة تونس من المستويات المتدرجة الآتية التي يستند اليها الهيكل الحضري :-

٢ - ١ : شبكة الطرق الرئيسة العامة :

وتتكون من المستويات الثانوية الآتية :-[٢٦]

- المستوى الأول : ويكون العمود الفقري لنظام الشوارع ويربط البوابات الرئيسة للمدينة مع بعضها ومع قلبها حيث تقع الفعاليات المركزية ، وترتبط خارجياً مع الطرق المؤدية الى المدن والقرى الأخرى .

وتحتوي المدينة على عدد قليل ومحدد (٢ او ٣) عادة من شوارع هذا المستوى المخطط فعلًا لهذا الغرض ، وأن أحدهايمثل المحور الرئيس للسوق في قلب المدينة وتمثل شوارع هذا المستوى المحاور الرئيسة للحركة وتتفرع منها محاور ثانوية عديدة .

- المستوى الثاني : وهي الطرق الرئيسة التي تربط المحلات السكنية المتجاورة مع بعضها او تخترقها وتربط بشكل مباشر بين شوارع المستوى الأول .
- المستوى الثالث : وهي الشوارع الثانوية التي تخدم المناطق الواقعة ضمن المحلة السكنية ، وهي المناطق التي لا تخدمها شوارع المستوى الثاني . وتستعمل عادة من قبل سكان المحلة أنفسهم او من له اتصال بهم . وفي نقاط عامة ومشتركة تظهر ضمن هذا المستوى فعاليات تجارية وخدمية لخدمة المحلة السكنية .

٢ - ٢ : نظام الأزقة :

تؤدي الى مجموعة محددة من المساكن وتمثل منطقة الأنتقال بين الحيز شبه العام والحيز الخاص في المسكن . ولا يوجد نمط محدد لكيفية ارتباط هذه الأزقة مع شبكة الشوارع العامة ، أذ يمكن ان ترتبط مع أي من المستويات الثلاثة فيه . ويتراوح طول هذه الأزقة بين تسعة أمتار كحد ادنى ومئة وأربعين متراً كحد اعلى وبمعدل أربعين متراً ، بينما يتراوح عرضها بين مترين وأربعة . ومن أهم العوامل المؤثرة على سعة واتجاه الطريق وكذلك مستواه وأهميته ، هو مداخل المدينة وموقع الجامع الكبير والسوق حيث تلتقي الشوارع الرئيسة في قلب المدينة .

٢ - ٣ : تغطية الشوارع :

يظهر نظام تغطية الشوارع في المدينة العربية الأسلامية في المغرب العربي نتيجة لجملة من المتطلبات وكما يلي :[٢٧]

حاجة الى فضاء اضافي ضمن الأبنية السكنية (بشكل خاص) ، حيث يغطي الزقاق او الطريق بفضاء يمتد من احدى الكتلتين (الواقعتين على جانبي الزقاق) او من كليهما ويمكن ان يتكرر ذلك بشكل متعاقب وكونه غطاء وممراً مستمراً يضفي عليه الشعور بالأنطلاق .

- متطلبات تغطية طرق المشاة لحمايتهم من التاثيرات المناخية . ويتجلى ذلك بشكل واضح في محاور الأسواق الرئيسة حيث تكون العقود والسقوف المائلة هي الطريق السائدة .
- الحاجة الى أسناد الجدران المتقابلة .

ان لاستعمال اساليب التغطية في الشوارع والأزقة مردودات

أيجابية من النواحي المناخية والبيئية ويحدث تلاعباً بالظل والضوء مما يحسن من خواصها البصرية .

٣ ـ التنظيم الاسكاني :

امتاز التنظيم الاسكاني في المدينة العربية الاسلامية في كافة انحاء العالم الاسلامي بشكل عام وفي مدن المغرب العربي بشكل خاص بتفرده في شكل وتكوين الوحدة السكنية المنفصلة وفي التكوين الناتج عن تجميع هذه الوحدات الذي شكل كيانات مميزة ذات علاقات وسمات عمرانية تقدم تعبيراً تلقائياً عن تاثيرات القيم الثقافية والعوامل الطبيعية على الهيكل العمراني للمدينة .

٣ ـ ١ : المجموعة السكنية :

من أهم السمات التي ميزت المدينة العربية الأسلامية عن تلك المخططة تحت نظام سلطة مركزية ، هي قدرة البيئة التقليدية على الانتقال بالفضاء الحضري الي صيغ تجميعية مشكلة كيانات كبيرة من كتلة مبنية تتكون من ملكيات فردية محددة لكنها متضامنة مع بعضها . يرتبط سكان هذه التجمعات المتضامنة مع بعضهم بروابط مختلفة وتترك تفاصيل تنظيم هذه التجميعات لهم . وتعد المناطق السكنية من المكونات الحضارية المميزة ، وتشغل مساحة كبيرة منها تقارب الثلثين ، كما نلاحظ في مدينة تونس ،[٢٨] وتكون من عدد من الاحياء .

وقد ظهرت فكرة القطاعات السكنية في مدن ما قبل الأسلام والمدن التي تاسست في عهد الفتوحات الاسلامية بما يعني أدخال القيم الاجتماعية القبلية في الحياة الحضرية . وفي عهد الاسلام نضجت وتطورت تلك الفكرة كظاهرة عمرانية سياسية واجتماعية حتى اصبحت المدينة مقسمة الى عدد من الأحياء .[٢٩]واهم ما تبينه هذه الميزة هو الفصل بين الفضاء العام والفضاء شبه العام ، فالفضاء شبه العام المتكون من هذا التشكيل هو داخل هذه التجمعات الكبيرة التي يمكن ان تدعى بالقطع الكبيرة ، وهي الأساس في الميزة العضوية للمدن العربية الاسلامية . ويتم الوصول للتجميعات السكنية المفيدة ضمن القطع الكبيرة بواسطة أزقة مسدودة النهاية تكون ضيقة وتتفرع عن الشوارع الرئيسة . هذه الازقة تكون تحت ملكية وأدامة وصيانة المستخدمين لها ، وهي غالباً ما تعد بمثابة الملك الخاص لهم . ويتكون الهيكل الحضري للمناطق السكنية من نسيج متضام (Compact Urban Fabric) يمثل الاستجابة العقلانية لنمط الحياة السكنية ولمتطلبات المجتمع العربي الاسلامي الدينية والاجتماعية الحضارية ، مما جعله أحد المعالم المميزة للمدن العربية الاسلامية(الشكل ١٢) . فالنسيج المتضام يوجد عبر ترابط مكوناته (الوحدة السكنية وشبكة الحركة) بيئة سكنية ذات طابع انساني تكون الأولوية في الأهمية لحركة السابلة .[٣٠]

٣ ـ ٢ : الحي السكني :

بدأ التركيب الاجتماعي لمدن ما قبل الاسلام على أسس اجتماعية قبلية . وفي مدن الاسلام الأولى استوطن العرب المسلمون على هذا الأساس كما في مدينة القيروان ، فكان اكتمال تطور الحي كظاهرة اجتماعية ، سياسية وعمرانية مستمراً في المرحلة الاسلامية تنقسم الى قطاعات تنظيمية سميت الحارات ، المحلات ، الأحياء ، القطاعات . وحافظت العديد من أحياء المدينة على تماسك جيد لتظهر كمجتمعات متجانسة متضامنة متجاورة وليحتفظ كل حي بميزة خاصة به .[٣١] بني تماسك بعض الأحياء او القطاعات على أسس اجتماعية دينية ، كما تكونت احياء اخرى تجمع قرويين من اصول واحدة في بعض المناطق الحضرية ، وكان هناك أسس اقتصادية لتجانس احياء معينة وبعضها سمي على اسم او حرفة ، واعطت السيطرة المشتركة للسكان على كل من هذه الأحياء ميزتها الخاصة ، ولا يوجد شاهد في المدينة العربية الاسلامية للفصل على اساس الطبقات الاقتصادية للمجتمع ، فالاحياء كانت مجتمعات تتكون من الاغنياء والفقراء .[٣٢] مع ذلك لم تكن الأحياء في المدينة منفصلة عن بعضها من الناحية العمرانية وأنما كانت لها شوارع وقطاعات متجاورة ضمن المدينة لا تنفصل عن بعضها ألا في أوقات الضرورة بواسطة بوابات ، كانت الى جانب كونها حدوداً محددة محسوسة للحي ونقاط فصل بين الفضاء الخارجي والداخلي (لسكان الحي) ، تمثل تحديداً لأمتدادات المسؤولية المشتركة للسكان للصيانة والأدامة والتغيير .(الشكل ١٣) كان كل حي يمثل من خلال تكوينه المتضام وحدة محصنة مكتفية بخدماتها الأساسية ومستقلة عند الضرورة ، لها جامع ، حمام عام ، سوق صغير ، وربما مشاغل صغيرة ، وهذه عناصر منفصلة عمرانياً عن سوق المدينة وخدماتها محددة باحيائها .

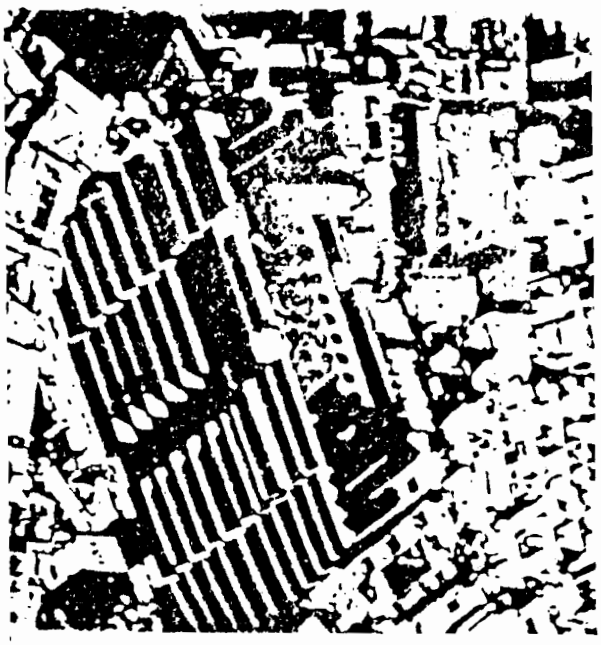

٣ ـ ٣ : الوحدة السكنية :

يتم تشكيل النسيج العمراني للحي او المحلة السكنية من خلال تكرار خلايا منفردة ذات ابعاد ومساحات متباينة لا تشترك معاً في العديد من جدرانها الخارجية من خلال تلاصقها ، تمثل كل من هذه الخلايا المسكن التقليدي . جاء شكل وتكوين المسكن التقليدي الأول نتاجاً لعوامل مؤثرة عديدة مثل الفلسفة والتقاليد الاسلامية ، مواد البناء المتوفرة ، حياة العائلة الأجتماعية ، التاثيرات الثقافية وتجارب المراحل التاريخية السابقة ، والمناخ . ولكن الثقافة الأسلامية للمجتمع أوضحت آثارها ايضاً على هذه الخلية ، اذ يرفض الفكر الاسلامي مبدئياً البذخ و الشموخ في بناء المساكن التي عندها قد تصبح رمزاً للفخر والتكبر . لذلك امتاز المسكن التقليدي بأنه واطىء البنيان وصغير ويندر ظهور المساكن الواسعة في المدن العربية الاسلامية .[٣٣] ولكن ذلك لا يعني عدم كفاءته التي كانت منخفضة في مختلف انواع المساكن .

وتتميز الوحدات المعمارية لمدينة تونس بعدم انتظام مساحتها نتيجة لعدم انتظام مواقعها وتداخلها مع بعضها وهو ما يرتبط عادة ونظام الأزقة العضوية Organic بما فيها غير السالكة التي انتجت بالضرورة هذا النمط من المساحات غير المنتظمة المتباينة المساحة(الشكل ١٤) .

وتعد بيوت (منازل) مدينة تونس بشكل خاص ومدن المغرب العربي بشكل عام ، نموذجاً من التصميم المعماري للبيت العربي الاسلامي ذي الصحن (الفناء) الذي من خصائصه ان جزء المعيشة فيه يتكون من صحن مفتوح للسماء وتطل عليه ايوانات الجلوس ، تتقدمها لوجيات .[٣٤]

كما تتماثل بالمدخل المنكسر والانغلاقية العالية بوجه الخارج وتتشابه في مظهرها الخارجي العام من خلال تلاصق الأبنية مع بعضها وكتلتها الصماء(الشكل ١٥) ، وقد استمر استخدام هذا النموذج في مدينة تونس منذ الفتح الأسلامي وانشاء الخلفاء للمدن في المغرب العربي الى الوقت الحاضر مع بعض التحوير والتطوير لمسايرة التطور الحضاري .

ويوضح ريفالت Revault في دراسته عن المنازل والقصور في مدينة تونس حيث يؤكد على وحدة المنازل (تجانسها) وبساطتها حيث انها تمثل نموذجاً مثالياً للمنزل المؤلف من طابق واحد ويتألف عادة من فناء للدار تحيط به الغرف مع مدخل مصمم ليمنع النظر المباشر من الخارج الى ساحة المنزل ، نرى ان ريفالت Revault يصنف نوع البيوت البرجوازية وبيوت الطبقة المتوسطة وبيوت الأقامة الكبيرة والقصور ، فضلًا عن عرض نموذج شائع ومألوف يوضح ان جميع انواع المنازل ذات موقع معين وأنها تقولبت باستعمال مواد البناء المحلية والطرق المتبعة في البناء نفسها .[٣٥] (الشكل ١٥) .

٤ ـ الجوانب الاجتماعية ـ الاقتصادية :

تستند الهياكل الاجتماعية للمدن العربية الاسلامية في المغرب العربي الى علاقات انسانية حقيقية والى التماسك الاجتماعي والأسري حيث راعت الرؤية الاسلامية في تخطيط المدن جوانب التخطيط المختلفة ، سواء كانت عمرانية او اقتصادية او اجتماعية ، ولا يعمم عليها ما يذكره بعض الباحثين من ان « الجوانب الأقتصادية والأجتماعية لم تكن في أعتبار المخططين للمدن في الحضارات القديمة وأن الأهتمام بهذه الجوانب حديث العهد » .[٣٦] أذ ان اكثر الملامح تميزاً في المجتمع الاسلامي هي فكرة الأمة وهو المجتمع الذي يستند الى مبدأ الأيمان أكثر من العشيرة او الأسرة كرابطة واحدة اجتماعية ، ويرادف ذلك مبدأ الوحدة . فالأسلام دين التوحيد الذي يهدف العديد من المبادىء فيه الى تقوية رابطة الأيمان وتحقيق مجتمع مترابط .[٣٧] ومن الشروط المرتبطة بالتخطيطين الاجتماعي والاقتصادي للمدينة الاسلامية شرط ابن الربيع على الحاكم ان « ينقل اليها من اهل العلم والصنائع بقدر الحاجة الى سكانها ، حتى يكتفوا بهم ويستغنوا عن الخروج الى غيرها » .[٣٨] وازدهرت المدن في المغرب العربي وارتقت احوالها الاقتصادية وزادت دخول سكانها ، فأصبحت مراكز استقطاب تغري أهل الريف بالهجرة اليها والقدوم الى أحيائها والأستقرار في ربوعها ، حيث يبحثون لأنفسهم عن حرف جديدة تغير طبيعة حياتهم السابقة . حدثت هذه الظاهرة وهي الهجرة من الريف الى المدينة ، مع الفتوحات ونشوء المدن وازدهارها في المغرب العربي ، فمغريات المدن وكثرة العمران فيها واشتداد الطلب على الأيدي العاملة للتشييد والبناء وتحسن مستوى الحياة وأرتفاع الأجور أدت الى جذب الزراع وسكان الريف اليها ، وهذا ما حدث في مدن القيروان وتونس وفاس . أما الشكل الآخر من اشكال التنظيم الأجتماعي الذي تطور في المدن العربية الأسلامية ولا زال قائماً في معظمها فهو نظام (المحلات

السكنية) فالمحلة السكنية يمكنها سكان متجانسون في الدين ، والاصل القومي . وقد نجح هذا النظام في توفير الجو السكني والاقتصادي الكفؤ وحتى وقت قريب جداً حيث توافقت الجوانب الانسانية والعوامل العمرانية بصورة خدمت وبنجاح الهدف الوظيفي للمدينة وبشكل أنعكس على نشاطها الاقتصادي .[٣٩] ان التجانس بين سكان القطاعات كان يستند بالدرجة الأولى على أساس ديني واسري وليس على اساس الثراء مما ساهم في اختلاط السكان بمستويات دخولهم المختلفة معطياً المجتمع الأسلامي بعداً انسانياً . وتتميز المجتمعات الاسلامية أيضاً بغياب الآلية الادارية القوية ، حيث كان علماء الدين هم المسؤولون والقائمون على الأوقاف وهم مسؤولو مدارس القانون الاسلامية . لقد كان تنظيم الحياة الاجتماعية في المدن العربية الاسلامية يتم من خلال سلسلة متدرجة من الهياكل والمؤسسات ، وتشمل هذه الهياكل ، الجامع ، مدرسة الفقه الاسلامي ، نقابات التجار ، والأنغلاق ، (العائلية والقبلية والدينية) ، ان اكثر هذه الهياكل اهمية هو الجامع وهو المؤسسة الدينية والثقافية التي تستوعب الفعاليات الدينية والتعليمية والثقافية والمكان الذي تحتك فيه القطاعات المختلفة من المجتمع الحضري مع بعضها . وقد ساهمت مدارس الفقه الاسلامي في تكوين الروابط التي تطورت الى تكوين جماعات تشترك في انماط معينة للحياة . وكان لها دور عميق في الحياة الاجتماعية للمدينة وأن السوق ، وهو مركز الفعاليات التجارية يؤدي دوراً مهماً في احتكاك افراد المجتمع على اختلاف شرائحهم ، وفي ربط المدينة وتكاملها مع مجاوراتها ، بحيث ان ادارة التجارة في المدن العربية الاسلامية قد ساعدت في تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمدينة .[٤٠]

٥ ـ المشهد المديني :

لاظهار تميز المدينة العربية الاسلامية في مشهدها المديني عن المدن في الحضارات الأخرى ، بالأمكان التركيز على مكون رئيسي يميز المشهد المديني ويوضح مدن الحضارات المختلفة ، ذلك هو مشهد المناطق السكنية . يتحدد الشارع في المدينة الاسلامية بجدران الأبنية المحيطة به التي تقع مباشرة عليه دون مسافة ارتداد ، هذا الشارع يتمتع بحالة من الوحدة العالية في الأرتفاعات وفي سيادة مواد بناء محلية متشابهة ، وفي العادة تبنى المساكن من الطابوق الظاهر او انها تطلى بالجير كما في اغلب المدن في المغرب العربي . يتميز الجدار الخارجي للمنزل التقليدي بانعدام او محدودية النوافذ في الطابق الأرضي مع وجود فتحة واضحة للباب تمتاز بدرجة عالية من التاكيد على الزخارف والأقواس . في حين يقدم الطابق الأول مساهمة كبيرة في المشهد المديني للزقاق من خلال المشبكات الخشبية او الحديدية للفتحات او البروزات المعلقة ذات الواجهة الخشبية (الشناشيل) والتي تبرز على فضاء الطريق لتؤكد على الأستمرارية بين الداخل والخارج من خلال توليدها أحساساً بالانسيابية بين النسق الفضائي الداخلي والنسق الفضائي الخارجي . هذا فضلاً عن وظائفها المناخية للمسكن والزقاق ودورها في ابراز المقياس الأنساني لعناصر الشارع ، تجعل البروزات المعلقة الفضاءات المغطاة أمام فضاءات شبه خاصة ، يساعدها في ذلك محدودية عرض الزقاق بالنسبة لارتفاعه ، وهو ما يوفر الشعور بالاحتواء شبه الكامل . تقدم الساحة كعنصر حضري في التجمع السكني خدمة فعالة كفضاء مشترك مفتوح وأمتداد للفضاء الخاص الداخلي للفرد ليشاركه فيه الجيران ، ولهذا تتكون علاقة حميمة وترابط اجتماعي وثيق بين السكان المتجاورين . لقد بنيت المحلة السكنية العربية الأسلامية على مبدأ مد الفضاءات الداخلية الى خارج المسكن ، اي باستمرار المحاولة لجعل الفضاءات داخلية (تدخيل الفضاءات) للفرد ، للأسرة ، للتجمع السكني الصغير ، للمحلة ، وللمدينة . وبالتالي بامكان الساكن توسيع سيطرته ومنطقة نفوذه .

الاستنتاجات :

١ ـ يتميز العرب بحضارتهم الأصيلة التي تمتد جذورها التاريخية في الجزيرة العربية قبل الأسلام ، ممتلكة نمطاً تخطيطياً أصيلاً ، تأصل في العصور الاسلامية المختلفة بعمقه وتنوعه وانتشاره في المشرق والمغرب العربي .

٢ ـ تعد القيروان اول انعكاس لتاثير تخطيط مدن المشرق العربي على المغرب العربي أذ مثلت اول مدينة عربية اسلامية تم تخطيطها في المغرب العربي مؤثرة على تخطيط المدن خلال القرون الأربعة الأولى من تاريخ الأسلام .

٣ ـ كان المنهج المتبع في تقسيم الخطط في المدن العربية الاسلامية الأولى في المغرب العربي ، هو الأساس نفسه الذي سار عليه اقطاع الخطط والمنازل في المدن العربية الاسلامية الناشئة في المشرق العربي ، هادفة لتجميع كل قبيلة في خطة خاصة بها ، وتركت حرية تقسيم القبيلة وفقاً لظروفها وأمكاناتها في الأنشاء والتعمير ، ومدى الحاجة الى ذلك ، كما روعيت النظرة المستقبلية لامتداد العمران ، مثل ما حدث في مدينة القيروان .

٤ ـ ان للمدينة العربية الاسلامية أسساً تخطيطية واحدة ، مما يدل على انتمائها الحضاري الموحد ، مع بعض الخصوصية لكل أقليم من اقاليمها كونها ناتجاً لتفاعل مقومات وأفكار الحضارة العربية الأسلامية مع الحضارات المحلية والظروف البيئية والمناخية

السائدة ، حيث تنتج الشخصية الحضارية المتمثلة بالمدينة العربية الاسلامية من تفاعل التشريع والسلوكيات مع الثقافات المحلية للبيئة ، وتتميز تبعاً لذلك مدينة عن أخرى مع اشتراك المدن المختلفة في العالم العربي الاسلامي بطابع ومشهد Urban Scene واحد .

٥ ـ تكاد خصائص المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي تكون موحدة مقارنة مع الحال في المدن العربية الاسلامية المشرقية لأن الأولى أحتفظت بنسيجها الحضري القديم وخصائصها وشكلها الحضري ومورفولوجيتها ، داخل نطاق الخصائص المميزة لكل مدينة ، لعدم تعرض المغرب العربي لأي تيار ثقافي خارجي حتى مطلع العصر الحديث ، بينما تعرضت بلاد المشرق العربي للتاثيرات البيزنطية والتركية والفارسية والمغولية ، فكان لذلك أثره في تغير أشكال طرزه المعمارية ، مقارنة مع المغرب العربي ، مما اتاح لمدن المغرب العربي على الاحتفاظ باصولها ، مما أضفى على تخطيط المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي أصالتها .

٦ ـ تتكون المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي مع مجموعة من المحلات السكنية المتمايزة فيما بينها ، والمتآلفة من مجاميع من الدور السكنية المتضامة ، حيث تشترك المناطق السكنية جميعها بسيادة روح التآلف والتجانس مع بعضها من جهة ، ومع باقي مكونات وأجزاء المدينة من جهة أخرى من خلال عضوية التغير الذي يستجيب للسلوك الانسيابي لأفراد المجتمع العربي المسلم .

٧ ـ كان لتراتب الشوارع (التدرج الهرمي) في المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي أثره الايجابي في ربط الوحدات السكنية مع بعضها ومع مراكز المدينة مما خلف نسيجها الحضري وأكسبها هويتها المتميزة .

٨ ـ يعد المسجد الجامع من اهم مكونات مخطط المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي كما في المشرق العربي ، وشكل مظهراً مهماً من مظاهرها ، وهو أول ما ينشأ في المدينة ويقع في وسطها الذي هو مركزها عادة يمثل رمزاً من رموز الايمان الروحي للمسلمين فضلًا عن وظائفه الاخرى كالتعليمية والسياسية . وانجذبت نحوه الاسواق وأقيمت حوله المساكن ومنه اتجهت الشوارع التي ربطت أجزاء المدينة بعضها مع البعض الآخر لتعكس أيجابياً على النسيج الحضري للمدينة .

٩ ـ تتوزع الشوارع الرئيسة باتجاه المسجد الجامع في وسط المدينة من مداخلها ومخارجها وتليها الشوارع الفرعية التي تربط المحلات السكنية وهذا يعني ان هناك ارتباطاً وثيقاً بين استعمالات الأرض الحضرية بعضها مع بعض داخل المدينة مما ينعكس على مخطط المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي .

١٠ ـ تعد مساكن (منازل) مدن المغرب العربي بشكل عام ومدينة تونس بشكل خاص ، نموذجاً من التصميم للبيت العربي الاسلامي ذي الصحن (الفناء) بكل خصائصه التصميمية او الوظيفية الملائمة للمرحلة الحضارية التي ظهر فيها .

الهوامش

١ ـ الاشعب ، د. خالص حسني ، « المدينة العربية » ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، قسم البحوث والدراسات الجغرافية ، بغداد ، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٢ م ، ص٢١ .

٢ ـ Ardalan, Nadar & Backtiar, « The sence of unity», University of chicago Press, U. S. A., 1973, PP. 89 – 93 .

٣ ـ عثمان ، محمد عبد الستار ، « المدينة الاسلامية » ، سلسلة عالم المعرفة ، دراسة رقم (١٢٨) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٨٥ م ، ص٩٥ .

٤ ـ ممفورد ، لويس ، « المدينة على مر العصور ـ وأصلها وتطورها ومستقبلها » ، الجزء الاول ، ترجمة ابراهيم نصحي ، أنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٤ م ، ص١٣٣ .

٥ ـ معروف ، د. ناجي ، « عروبة المدن الاسلامية » ، مطبعة المعاني ، بغداد ١٩٦٤ م ، ص٣٠ .

٦ ـ البكري ، ابو عبد بن عبد العزيز بن محمد (٤٣٢ هـ ـ ٤٨٧ هـ) . « المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب » ، وهو جزء من كتاب ، « المسالك والممالك » ، نسخة مكتبة المثنى ، بغداد ، عن الطبعة الاوربية ، نشر رولان ، طبعة باريس ١٩٦٥ م ، ص٢١ .

٧ ـ ياقوت الحموي ، شهاب الدين بن عبد الله (ت ٦٢٦ / ١٢٢٩ م) ، « معجم البلدان » ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٥٧ م ، ص٣٩١ ـ ٣٩٢ .

٨ ـ عاشور ، د. سعيد عبد الفتاح وآخرون ، « دراسات في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية » ، طبعة ثانية ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م ، ص٢٢٨ .

٩ ـ مؤنس ، د. حسين ، « المساجد » ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، صفر / ربيع الاول ١٤٠١ هـ/ كانون الثاني ١٩٨١ م ، ص٢١٢ .

١٠ ـ مؤنس ، د. حسين ، « المساجد » ، مصدر سابق ، ص٢١٧ .

١١ ـ الشافعي ، د. فريد ، « العمارة العربية في مصر الاسلامية » ،

منشورات الهيئة المصرية للكتاب والنشر والترجمة ، ج ١ ، القاهرة ، بلا تاريخ ، ص٦٤٧ .

١٢ ـ لومبير ، أيلي ، « تطور العمارة الاسلامية في اسبانيا والبرتغال وشمال افريقيا » ، تعريب جليان عطا الله ، بيروت ١٩٨٥ م ، ص٦٨ .

١٣ ـ المقدسي ، شمس الدين ابو عبد الله (ت ٣٩٠ هـ) ، « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » ، نسخة مكتبة المثنى ، مطبعة برل ، ليدن ، المانيا ، ١٩٠٦ م ، ص٢٦٦ .

١٤ ـ كونل ، « الفن الاسلامي » ، ترجمة : احمد موسى ، بيروت ١٩٦٦ م ، ص١١ ـ ١٢ .

١٥ ـ Ansari, J . shaheer, « Astrategy for planing an Arab Town », in, « The Arab City », The Arab Urban Development Institute, Riyadh, 1982, P. 273 .

١٦ ـ Ibid, P. 278 .

١٧ ـ Hakim, B., Selim, « Arab – Islamic cities, Building and planing Principles », KPI limited, london, England, 1986, P.70 .

١٨ ـ Bianca, Stefano, « Traditional Muslim cities & western planning Ideology :

Anoutline of sturctural conflicts », in « The Arab City » , The Arab Urban Development Institute, Riyadh, 1982, P.42 .

١٩ ـ Hakim, B., Selim, « Arabic – Islamic cities » op – Cit, P. 70

٢٠ ـ ج . ديبوا ، « تونس » تعريب الصادق مازيغ ، الدار التونسية ١٩٦٩ م ، ص٣٤٠ ـ ٣٤١ .

٢١ ـ الأشعب ، د. خالص حسني ، « الحفاظ على النسيج الحضري الموروث في المدينة العربية الاسلامية » ، مجلة كلية الآداب ، المجلد ٣٣ ، العدد الاول ، ص٥٣ .

٢٢ ـ Wheathly, p, « Levels of space Awarenss in the traditional islamic city , in « Ekistics », No. 253, Dec 1967, P. 365 .

٢٣ ـ Ansari, J . h & shaheer.M « Astrategy for planing an Arabic Town », op ' cit, pp.274 ' 277 .

٢٤ ـ Bianca, Stefano, « Traditional Muslim cities & western planning Ideology : op – cit, p.40 .

٢٥ ـ Janet Abu – Lughod, « Contem porary Relevance of Islamic Urban Principles », International Symposum on Islamic Architecture and Urbanism », in, « Ekistics », No. 280,Jan / Feb 1980, p. 8 .

٢٦ ـ Hakim, B., Selim, « Arabic – Islamic cities » op – Cit, P. 64

٢٧ ـ Hakim, B., Selim, « Arabic – Islamic cities » op · Cit, P. 64

٢٨ ـ Hakim, B., Selim, « Arabic – Islamic cities » op – Cit, P, 115

٢٩ ـ Ismail, A. A, « Origin, Ideology & physical pattern of Arab Urbainzation », in, « Ekistics », No. 195, Feb 1972, P.116 .

٣٠ ـ Warren, John, « characteristics of IslaMic Arab Architecture Building & Urban form » ,

بحث في ندوة ، « التراث المعماري والعمارة العربية المعاصرة » ، بغداد ١٥ ـ ١٧ ايلول ، ١٩٨٠ م ص٨ ـ ٩ .

٣١ ـ Lapidus, Ira Marvin, « Muslim cities in the later middle ages », The M. I. T. press, Cambridge, massachnsetts, 1967, p.85 .

٣٢ ـ Ismail, A. A, « Architecture Building & Urban form » op – cit, P.116 .

٣٣ ـ De Planhol, Xavier, « The world of Islam » , Ithaca, 1959, p.23 .

٣٤ ـ فتحي ، المهندس ، « العمارة العربية الحضرية بالشرق الأوسط » ، محاضرة ألقاها في جامعة بيروت العربية ، ٢٩ نيسان ١٩٧١ م ، ص١٥ ـ ١٦ .

٣٥ ـ Hakim, B., Selim, « Arabic – Islamic cities » op – Cit, P. 96 .

٣٦ ـ عثمان ، محمد عبد الستار ، « المدينة الاسلامية » ، مصدر سابق ، ص٩٦ .

٣٧ ـ Ansari, J . h & shaheer.M « Astrategy for planing an Arab Town », op – cit, pp.274 ' 273 .

٣٨ ـ القزويني ، (ابو زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ) ، « آثار البلاد وأخبار العباد » ، دار الصياد ، بيروت ١٩٦٠ م ، ص٩٤ .

٣٩ ـ الأشعب ، د. خالص حسني ، « أصالة المدينة العربية » ، مجلة آفاق عربية ، العدد ١ ، بغداد ، ايلول ١٩٧٧ م ، ص٣٤ ـ ٣٥ .

٤٠ ـ Hassan, R, « The Islam & Urbanization in the medieval middle East », in, « Ekistics », No. 195, 1972.PP.110 – 111 .

المصادر والمراجع العربية :

١ ـ الأشعب ، د. خالص حسني ، « المدينة العربية » ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، قسم البحوث والدراسات الجغرافية ، بغداد ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ م .

٢ ـ الأشعب ، د. خالص حسني ، « الحفاظ على النسيج الحضري الموروث في المدينة العربية الأسلامية » ، مجلة كلية الآداب ، المجلد ٣٣ ، العدد الأول .

٣ ـ الأشعب ، د. خالص حسني ، « أصالة المدينة العربية » ، مجلة آفاق عربية ، العدد ١ ، بغداد ، ايلول ١٩٧٧ م .

٤ ـ أويجن فيرت ، « المدينة الشرقية والقواعد الذاتية لتطوراتها الحديثة ، « مقالات حول جغرافية المدينة الشرقية الأسلامية في (دراسات جغرافية المانية حول الشرق الأوسط) ، تحقيق

أويجن فيرت ، ترجمة فؤاد ابراهيم وآخرون ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٣ .
٥ ـ بروفنسال ، ليفي ، « كتاب الشرق الأسلامي والحضارة العربية الأسلامية » ، تطوان ، دار الطباعة المغربية ١٩٥١ م .
٦ ـ البكري ، ابو عبد بن عبد العزيز بن محمد (٤٣٢ هـ ـ ٤٨٧ هـ) ، « المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب » ، وهو جزء من كتاب ، « المسالك والممالك » نسخة مكتبة المثنى ، بغداد ، عن الطبعة الأوربية ، نشر رولان ، طبعة باريس ١٩٦٥ م .
٧ ـ ج . ديبوا ، « تونس » تعريب الصادق مازيغ ، الدار التونسية ١٩٦٩ م .
٨ ـ الشافعي ، د. فريد ، « العمارة العربية في مصر الاسلامية » ، منشورات الهيئة المصرية للكتاب والنشر والترجمة ، ج ١ ، القاهرة ، بلا تاريخ .
٩ ـ عاشور ، د. سعيد عبد الفتاح وآخرون ، « دراسات في تاريخ الحضارة العربية الأسلامية » ، طبعة ثانية ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .
١٠ ـ عثمان ، محمد عبد الستار ، « المدينة الأسلامية » ، سلسلة عالم المعرفة ، دراسة رقم (١٢٨) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٨٥ م .
١١ ـ فتحي ، المهندس ، « العمارة العربية الحضرية بالشرق الأوسط » ، محاضرة ألقاها في جامعة بيروت العربية ، ٢٩ نيسان ١٩٧١ م .
١٢ ـ كوتل ، « الفن الأسلامي » ، ترجمة : احمد موسى ، بيروت ١٩٦٦ م .
١٣ ـ القزويني ، (ابو زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ) ، « آثار البلاد وأخبار العباد » ، دار الصياد ، بيروت ١٩٦٠ م .
١٤ ـ لومبير ، أيلي ، « تطور العمارة الأسلامية في اسبانيا والبرتغال وشمال افريقيا » ، تعريب جليان عطا الله ، بيروت ١٩٨٥ م .
١٥ ـ مصطفى ، شاكر ، « المدن في الأسلام حتى العصر العثماني » ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .
١٦ ـ معروف ، د. ناجي ، « عروبة المدن الأسلامية » ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٦٤ م .
١٧ ـ المقدسي ، شمس الدين ابو عبد الله (ت ٣٩٠ هـ) ، « احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ، نسخة مكتبة المثنى ، مطبعة برل ، ليدن ، المانيا ، ١٩٠٦ م .
١٨ ـ ممفورد ، لويس ، « المدينة على مر العصور ـ وأصلها وتطورها ومستقبلها » ، الجزء الأول ، ترجمة ابراهيم نصحي ، أنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٤ م .
١٩ ـ مؤنس ، د. حسين ، « المساجد » ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، صفر / ربيع الأول ١٤٠١ هـ / كانون الثاني ١٩٨١ م .
٢٠ ـ ناجي ، د. عبد الجبار ، « مفهوم العرب للمدينة الأسلامية » ، مجلة المدينة العربية ، نشر منظمة المدن العربية ، العدد السادس عشر ، السنة الرابعة ، رجب ١٤٠٥ هـ / أبريل ١٩٨٥ م .
٢١ ـ ياقوت الحموي ، شهاب الدين بن عبد الله (ت ٦٢٦ / ١٢٢٩ م) ، « معجم البلدان » ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٥٧ م .

المصادر والمراجع الاجنبية :

1 – Akbar, Jamel, « Crisis in the Built Environment, The case of Muslim City, Amimar Book, concept, Mediapte ltd, sing apove, 1988 .

2 – Ansari, J . shaheer, « Astrategy for planing an Arab Town », in, « The Arab City », The Arab Urban Development Institute, Riyadh, 1982 .

3 – Ardalan, Nader & Backtiar, « The sence of unity », University of chicago Press, U. S. A., 1973 .

4 – Bianca, Stefano, « Traditional Muslim cities & western planning Ideology :
Anoutline of sturctural conflicts », in « The Arab City » , The Arab Urban Development Institute, Riyadh, 1982 .

5 – De Planhol, Xavier, « The world of Islam » , Ithaca, 1959 .

6 – Hakim, B., Selim, « Arabic – Islamic cities, Building and planing Principles », KPI limited, london, England, 1986 .

7 – Hassan, R, « The Islam & Urbanization in the medieval East », in, « Ekistics », No. 195, 1972 .

8 – Ismail, A. A, « Origin, Ideology & physical pattern of Arab Urbainzation », in, « Ekistics », No. 195, Feb 1972 .

9 – Kevin Lynch, « Atheory of Good city form », The Mitpress cambridge, Massachusetts, U. S. A., 1981 .

10 – Janet Abu – Lughod, « Contem porary Relevance of Islamic Urban Principles », International Symposium on Islamic Architecture and Urbanism », in, « Ekistics », No. 280,Jan / Feb 1980 .

11 – Warren, John, « cnaracteristics of IslaMic Arab Architecture Building & Urban form » ,
بحث في ندوة ، « التراث المعماري والعمارة العربية المعاصرة » ، بغداد ١٥ ـ ١٧ ايلول ، ١٩٨٠ م .

12 – Wheathly, p., « Levels of space Awarenss in the traditional Islamic city », in « Ekistics », No. 253, Dec 1967 .